رهائنُ الصراعاتِ الخارجيةِ منذُ عهد الأميرِ محمد إلى نهايةِ عصر الإمارة (٢٣٨-٣١٦هـ/٨٥٢-٨٥٢م)

رهائنُ لفكِ أسرِ الوزير هاشم بنِ عبد العزيز:

وصلَ الأميرُ محمد (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م) للحكم في وقت تمزقت فيه وحدة الأندلس، وقام الثوارُ بسائر أنحائها ضد حكومة قرطبة، واستقلوا بحكم المناطق التي ثاروا فيها، وتعددت أجناس الثوار، بالإضافة إلى ذلك لم يستطع الأمير محمد تجاهل خطر الدويلات الإسبانية في الشمال التي أخذ عددها يزداد وقوتها كذلك، وأخذت بالتوسع تدريجياً على حساب الممتلكات الإسلامية، فحاول أن يضع حدا لهذا الزحف نحو الجنوب (٣١٨).

بدأ الأميرُ محمد نشاطه العسكري ضد نصارى الشمال عام (٢٣٩هـ/٨٥٣م) بإرسال حملتين إحداهما بقيادة أخيه الحكم لإصلاح قلعة رباح (٣١٩)، والثانية بقيادة موسي بن موسي صاحب تطلية (Tudela) فعاث في نواحي ألبة والقلاع وفتح بعض حصونها ورجع (٣٢٠)

وكان أهل طليطلة قد أعلنوا الثورة على الأمير محمد في نفس عام ولايته، وكانت المدينة تعج بالمولدين والنصارى فالتمسوا العون من أردونيو الأول الذي لم يتردد في تقديم كل وسائل المساعدة للثوار، فبعث إليهم جيشا بقيادة أخيه غاتون (Gaton) سنة (٢٤٠هـ/٨٥٤م)

(٣١٨)خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٦٧.
(٣١٩)عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٢٤٥.
(٣٢٠)ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ٩٧؛ خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٦٧.

(٣٢١)، فكان تدخل النصارى في شئون البلاد الداخلية أثره في إذكاء حماسة المسلمين الدينية فسارعوا للانضمام لجيش الإمارة الذي نجح في هزيمة هذا التحالف (٣٢٢).

وفي السنة التالية (٢٤١هـ/٨٥٥م) قاد الأمير محمد الصائفة وكان قد كتب إلى موسي بن موسي وأهل الثغور بأن يتوافقوا إليه، فدخلوا جميعا إلى منطقة ألبة والقلاع وبلغوا جليقية وفتحوا كثيرا من الحصون (٣٢٣)، وفي سنة (٢٤٥هـ/٨٥٩م) شغل الأمير محمد بعودة ظهور النورمانديين على سواحل الأندلس، وشغله تحالف بني قسي الذين عادوا للتمرد مع إمارة نبرة، وطلبوا من الأمير محمد أن لا تكون أرضهم طريقا لمرور القوات الإسلامية الغازية وذلك لما تناله أرضهم من دمار، فوافق الأمير محمد وتحركت صائفة سنة (٢٤٧هـ/٨٦١م) نحو ألبة والقلاع عن طريق آخر (٣٢٤)، وكانت حملات الأمير محمد إلى نصاري الشمال تخرج إليهم بصفة مستمرة ولم يترك لهم الأمير محمد فرصة للراحة حتى وفاة ملكهم أردونيو سنة (٢٥٣هـ/٨٦٧م) فخلفه ابنه ألفونسو والثالث (الكبير) (٢٥٢-٢٩٦هـ/٨٦٦-٩١٠م) (٣٢٥)، وفي سنة (٢٥٣هـ/٨٦٧م) أرسل الأمير محمد ابنه الحكم بصائفة نجحت في فتح حصن جرنيق (Guernica) والاستيلاء على ما فيه (٣٢٦) ثم توقفت الغزوات الإسلامية إلى نصاري الشمال حتى سنة (٢٦٦هـ/ ٨٨٠م) وذلك بسبب انشغال الأمير محمد بقمع فتنة النصارى المعاهدين الذين حرضوا أهل طليطلة وماردة على الثورة (٣٢٧) فأنتهز ألفونسو الثالث هذه الفرصة وشجع كل خارج عن حكومة قرطبة، فمد يد العون

(٣٢١)النويري: نهاية الأرب، ج٢٣، ص ٣٨٧؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢٠.
(٣٢٢)ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢٠، ٢١.
(٣٢٣)ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ٩٧؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٣، ص٣٨٨.
(٣٢٤)النويري: نهاية الأرب، ج٢٣، ص ٣٨٩.
(٣٢٥)عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص٢٩٩.
(٣٢٦)ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ٩٩.
(٣٢٧)رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، ص ١٤٥.

وتحالف مع ابن مروان الجليقي، وجاء سعدون السرنباقي بمدد كبير من الملك ألفونسو الثالث، واستطاع الطرفان هزيمة قوات الأمير محمد والتي قادها ابنه المنذر بن محمد والوزير هاشم بن عبد العزيز، فأسر الأخير (٣٢٨).

وكتب سعدون إلى أذفونش (ألفونسو الثالث) يبشره بما أصابه من نصر ويبلغه بشأن أسيره، وما أن بلغ ألفونسو الثالث ذلك حتى أذهله الخبر فعظم سروره به، وشمخت أنفه بوقوع هاشم في أسره، فلما مثل هاشم أمام الملك وقف على حسن شمائله ولطف معشره واتساع أفق معارفه قربه إليه وأدناه منه واتَّخَذَهُ نديماً، فأصبح نادرا ما جلس لأهل مملكته أو تفرغ لطعامه إلا وكان هاشم برفقته يأخذ الملك بمشورته ويعمل برأيه (٣٢٩).

ظل هاشم بن عبد العزيز أسيراً بمدينة أوبييدو زهاء عامين، حتى تم الإفراج عنه لقاء فدية كبيرة بلغت مائة وخمسين ألف دينار حتى رضي الأمير محمد بدفع جزء من الفدية المطلوبة، كما تعهد لملك ليون بدفع البقية فيما بعد، وأسلمه للوفاء بعهده إخوة هاشم بن عبد العزيز وابنه وابن أخيه رهائن (٣٣٠)، والرهائن الذين أرسلهم الأمير محمد كانوا ضمانة لكي يدفع الأمير محمد باقي الفدية، وأن استمرار الوزير هاشم بن عبد العزيز في الأسر لمدة عامين قد نال من هيبة الإمارة الأموية وزاد من حماسة الثوار وشجع النصارى على مساعدتهم.

وكان لهذه الحادثة تأثير بليغ في نفسية الأمير محمد فأمر بغزو مدينة جليقية من ناحية البحر، ووجهها إلى المحيط الأطلسي سنة (٢٦٦هـ/٨٧٩م)بقيادة قائد الأسطول عبد الحميد بن مغيث، ولكن لسوء الحظ داهمت العواصف المراكب ودمرتها قبل أن تبلغ هدفها، وأضطر

(٣٢٨)ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ٩٩ -١٠٢؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ٣٠٦.
(٣٢٩)ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ٩٩.
(٣٣٠)رينهارت دوزى: المسلمون في الأندلس، ج١، ص١٣٦.

ما بقي منها للعودة إلى قواعده دون القيام بأي عملية حربية [٣٣١]، فرد ألفونسو الثالث على ذلك بأن قام في العام التالي (٢٦٧هـ/٨٨٠م)بغزو الأراضي الإسلامية وعبر نهر دويرة والتاجه ووصل في زحفه حتى أحواز مدينة ماردة ووادي آنه وهو مدي لم يصله أحد من ملوك النصارى من قبل [٣٣٢].

إزاء ذلك أرسل الأمير محمد سنة (٢٦٨هـ/٧٨١م) جيشا بقيادة ابنه المنذر وهاشم نحو ألبة والقلاع، وعني الأمير محمد بتحصين أطراف الثغور، فأقام عددا من القلاع الدفاعية مثل حصن شنت أشتيبن لحماية مدينة سالم، وحصن طلمنكه ومجريط بمدينة وادي الحجارة لحماية طليطلة [٣٣٣]، وحصون قنالش (Canales)ودلموش (Olmos)وقلعة الحلفا (Salatalifa)علي سفوح جبال وادي الرمل الجنوبية، والنصارى من جهتهم قاموا ببناء المدن الحصينة بعد أن وصلت حدودهم حتى نهر دويرة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وهي مدن سمورة (Zamora)وسمينقة (Simancas)، ومدينة واسمه (Osma)، فنجد أن هذه الحصون المنتشرة فرضت على الطرفين واقعا جديدا، فنجد أن غزوة سنة (٢٧٠هـ/٨٨٣م)والتي خرجت بقيادة المنذر وهاشم قد انتهت بعقد هدنة، ورحب ألفونسو الثالث بها وأرسل القس دولشديو سفيرا إلى قرطبة لإرساء دعائم هذا الصلح فتنفس ألفونسو الصعداء لأنه أراد التفرغ للأزمات والقلاقل الداخلية [٣٣٤].

(٣٣١)النويري: نهاية الأرب، ج٢٣، ص ٣٩١؛ ابن خلدون، ج٤، ص ١٦٧، ١٦٨.
(٣٣٢)ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ١٠٠؛ رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، ص ١٤٥.
(٣٣٣)عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ٣٠٧.
(٣٣٤)رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، ص ١٤٦، ١٤٧؛ كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٩٠.

أما قرطبة بعد وفاة الأمير محمد سنة (٢٧٣هـ/٨٨٦م) شغلت بكثرة الثوار والمنشقين خاصة ثورة عمر بن حفصون، وبني قسي وبنو الطويل المولدون، وبنو تجيب العرب قد تنازعوا فيما بينهم من أجل السيادة على الثغر الأعلى واستعانوا بملوك جليقية ونبره ضد بعضهم البعض (٣٣٥).

محمدٌ بنُ عبد الملك الطويل يرفض عرض الرهائن والجزية:

في سنة (٢٩٦هـ/٩٠٨م) خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى بليارش في شهر رمضان فقتل هنالك مقتلة عظيمة. ووفد عليه رسل أهل حصن روطة، يرغبون الصلح ويسمحون بالرهائن والجزية؛ فلم يجبهم إلى ذلك؛ فخرجوا هاربين من الحصن، وأخلوه. وتقدم إليه فهدمه وتغلب على حصن منت بطروش، وهو المعروف بجبل الحجارة.

وفي هذه الحالة يتبين رفض محمد الطويل للصلح واتخاذ الرهائن لأسباب منها: -

أن المنطقة الجغرافية ذاتها قريبة منه فهو على علم ودراية بها، وأن محمد الطويل كان على درجة من القوة جعلته واثقا في النصر فرغب في توسيع منطقة سيطرته ونفوذه.

ومن خلال الأحداث السابقة نجد أن الحملات العسكرية التي جردتها الإمارة الأموية نحو الشمال الأسباني خلال عصر الإمارة اتخذت شكلاً تقليدياً وزمناً ثابتاً وهو إرسال صائفة

(٣٣٥)ابن القوطية: تاريخ إفتاح الأندلس، ص ١١٥،١١٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٣، ص ٣٩٣؛ كمال السيد: بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس، ص٦٦، ٦٧.

كل عام تقريبا، وأن ذكر المعارك يرد بإيجاز بسيط وغير واضح في المصادر الإسلامية، ويرجع ذلك إلى أنها لم تكن معارك ذات نتائج حاسمة، فحرب المسلمين ضد نصاري الشمال كانت حرب وقائية بالدرجة الأولى، فالمسلمين لم يجردوا الحملات إلى الشمال الأسباني إلا لرد عدوان أو لحماية الثغور، مما أعطي الفرصة لنصاري الشمال لإعادة ترتيب صفوفهم لاستئناف حربهم ضد المسلمين من جديد، وأن تركيز الروايات التاريخية على حصول المسلمين على الأسلاب والغنائم يدعو إلى القول بأن المكاسب المادية كانت إحدى الدوافع وراء تجريد الحملات للشمال، خصوصا أن نسبة كبيرة من الجيش النظامي كان من الجنود المرتزقة، كما أنه تم استخدام النصارى بشكل واضح في الجيوش الإسلامية (٣٣٦).

ورغم عبارات التضخيم والمبالغة التي استخدمها المؤرخون المسلمون لتضخيم دور الأمراء الأمويين الجهادي إلا أن خروج الجيوش الإسلامية للجهاد لم يكن سوي استعراض عسكري لإظهار قوة قرطبة وفرض السلطة والهيبة وتوفير الأمن لسكان الثغور ثم العودة سريعاً إلى الجنوب، ولم يكن خروجها للقضاء على الدويلات النصرانية وذلك لم يكن ممكنا اعدم توافر الإمكانيات، فحكومة قرطبة كانت تركز نفقاتها في إصلاح البلاد وإعمارها بدلا من الإنفاق على الحملات العسكرية (٣٣٧)، التي كانت مكلفة جدا لقرطبة والتي شكلت استنزافا لثرواتها البشرية والمادية، وأصبح الأمراء الأمويون في النصف الثاني من عصر الإمارة يلوذون إلى السلم، وأن المعاهدات السلمية لم تكن على قدم المساواة فحينما يشعر حكام الإمارات الإسبانية

(٣٣٦)عبادة كحيلة: تاريخ النصارى، ص١٦١،١٦٠؛ استانلي لين بول: قصة العرب في إسبانيا، ص ١٧٢.
(٣٣٧)جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٢٧٤.

بالقوة أو بانشغال المسلمين في مشكلة داخلية لا يترددون في نقض عهودهم وغزو الأراضي التابعة للأندلس (٣٣٨).

وربما كان لمذهب الإمام مالك أثر في ذلك فهو من القائلين بجواز الصلح وإن كان من غير ضرورة معتمداً على قوله تعالى ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ على اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٣٩)، فحروب المسلمين في الأندلس كانت تهدف قبل كل شيء إلى الدفاع عن النفس والمحافظة على المصالح، فصار الجهاد مجرد دعاية تضفي طابع الاحترام على السلطة القائمة وإدماج العامة في صفوفها، فكان المسلمون بالأندلس يحاربون النصارى أحيانا ويتحالفون معهم أحيانا أخرى لقتال أهل ملتهم، وبذلك تحكمت المصالح الدنيوية في توجيه مضمون الجهاد والانحراف به عن معناه الأساسي (٣٤٠).

وممالك إسبانيا النصرانية نجحت في مد حدود سلطانهم وتمسكوا بالدين المسيحي ووجدوا في تقديس شانت ياقب مصدر قوة خارقة تشد أزرهم ولها تأثيرٌ كبيرٌ في إثارة الروح المعنوية عندهم فأخذت حروبهم الطابع الصليبي (٣٤١)، ولم يهملوا الأسس المادية للنصر العسكري فاقتبسوا ما أمكنهم من السلاح التي كانت تمنح المسلمين التفوق وعجلوا من عملية استيعاب توطين المستعربين النازحين من المناطق الإسلامية في المناطق الخالية على تخوم المناطق المسيحية (٣٤٢)، وفي هذه الحروب نجد أن المسحيين بدءوا حربهم ضد المسلمين بالهجوم عوضاً عن الدفاع لإيقاف الحملات الإسلامية، وأن خسائر المسلمين بدأت تتضاعف عندما

(٣٣٨)السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص١٤٠.
(٣٣٩)سورة الأنفال: آية ٦١.
(٣٤٠)محمد مفتاح: مفهوم الجهاد والإتحاد في الأدب الأندلسي، مجلة عالم الفكر، م١٢، عدد ١، ص ١٨٢.
(٣٤١)السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص١٤٣.
(٣٤٢)مونتغمري وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص١٧٩، ١٨٠.

انتقلت مهمة الدفاع عن الثغور الإسلامية إلى الإمارات المستقلة في الشمال، فتساقطت الواحدة تلو الأخرى أمام هجمات الممالك النصرانية، إضافة إلى ذلك كان ملوك النصارى يقودون المعارك بأنفسهم مما كان له أكبر الأثر على الجنود (٣٤٣)، ولقد استفادت القوي النصرانية من التحالفات مع الثوار المولدين ودعمتها بوسائل مختلفة كالمصاهرة، وعملت على إضعاف الإمارة الأموية بكل الوسائل (٣٤٤).

وبعد أن تأكدت القوي المسيحية في الشمال أن الأندلس أصبحت في موقف دفاعي بدأت تصعد من هجماتها حتى أصبحت دولتهم تشمل كل ما يقع خلف نهر دويرة، ونصف المنطقة التي تقع بين نهر إبره وجبال البرنيه حتى تنتهي إلى نقطة على ساحل المتوسط في منتصف المسافة بين برشلونة التي يسيطرُ عليها الفرنجة وبين طرطوشة آخر الثغور الإسلامية في تلك الناحية (٣٤٥)ولذلك نجد أن الملك غرسيه الأول (٢٩٧-٣٠٢هـ/٩٠٩-٩١٤م)قام بنقل العاصمة من مدينة أبيدو إلى مدينة ليون، فأصبحت مملكة أشتورياش تسمي في ذلك الحين مملكة ليون (٣٤٦)ولا شك أن نقل العاصمة إلى ليون يحمل العديد من الحقائق، حيث أن نطاق الدولة النصرانية قد اتسع جنوبا على حساب المسلمين حيث أصبحت مدينة أبيدو غير لائقة بأن تكون عاصمة لها (٣٤٧)، وذلك دليل على أن نصاري الشمال قد شعروا بقوة أنفسهم إزاء قوة المسلمين، ولذلك نقلوا عاصمتهم من المناطقِ الجبليةِ إلى المناطقِ السهليةِ، القريبةِ من المسلمين.

(٣٤٣)أميرة بنت أحمد الجعفرى: سياسة الدولة الأموية في إدارة الثغور الأندلسية، مجلة المؤرخ العربى، عدد (١٤)القاهرة ٢٠٠٦، ص٢٧٣.
(٣٤٤)مونتغمري وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص١٧٩، ١٨٠.
(٣٤٥)رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية، ص ١٢٨.
(٣٤٦)عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ٣٦١؛ الحجى: التاريخ الأندلسي، ص ٢٧١.
(٣٤٧)مونتغمري وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص١٧٩، ١٨٠.